الفصل التاسع

الشعراء فى عهد العباسيين

(١) شعراء مصر :

أما شعراء مصر فى هذه الفترة فلم يكن عددهم كثيراً ، ولا كان الشعر عملهم إذا استثنينا المُـمَـلَّى والحسين بن عبد السلام الجمل . لـكن الشعر الباقى لنا يدل على استعداد قيم ، وعلى مواهب لو قيض لها من يشجعها أو انصرف أصحابها إلى ترقيتها لأبدعوا وأجادوا ، كإسحاق بن معـاذ بن مجاهد بن خير ، ويحيى الحولانى . وأشهر هؤلاء الشعراء سعيد بن عفير ، والمعلى الطائى ، والحسين بن عبد السلام الجمل .

١ — سعيد بن كثير بن عفير : (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)

أول شـعراء هذا العصر ، وهو رجل متعدد النواحى إذ كان فقيهاً ومحدثاً وكاتب قضاء ، كما كان شاعراً راوية للأدب ، عالمـا بالأنساب والأخبار ، وأيام العرب ومآثرها ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان فى ذلك كله شيئاً عجيباً[1] .

أما شعره فيمتاز بالصدق والصراحة ، والبعد عن الزلفى . وفيه النقد الحر للوالى . وقد تقدم أكثر شـعره الذى جاء به الـكندى . وأول ما روى له من الشعر متصل بسنة ١٦٨ هـ ، وآخر ما روى له كان فى سنة ٢٠٩ . وقد يبدو فى

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٧٥ .

شعره أثر العصبية والميل إلى قحطان وإلى قضاعة ، وشعره فى جملته جيد الأسلوب صادق المعنى .

٢ — المعلىّ الطائى :

عاش المعلى وسعيد بن عفير زمنا . والأشعار التى رواها الكندى له تمتد من سنة ١٩٤ — ٢١٤ هـ . وقد شغلا شعرهما بالأخبار والحوادث ، أو برجال الدولة وأعمالهم ، أو بالسياسة وتطورها ، ولكن اختلفت طباعهما وثقافتهما وصلتهما بالولاة ، ويظهر أن المعلى كان أقربهما إلى الشعر ، وأكثرهما تجويداً له وعناية به ، كما كان أصغرهما سنا .

وللمعلى الطائى شعر فى غير الكندى . فقد روى له الأغانى بيتين[1] فى الدعوة إلى الصبّوح صبيحة النيروز ، وفى تبسم الربيع عن نواره . وروى له قصيدة فى مدح عبد الله بن طاهر والاعتذار إليه بعد تغلبه على ابن السرى[2] .

وقصة هذا المدح أنه لما فتح ابن طاهر مصر « سوغه المأمون خراجها ، فصعد المنبر ، فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ؛ فأتاه معلى الطائى ، وقد أعلموه ما صنع عبد الله بن طاهر بالناس فى الجوائز ، وكان عليه واجدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير . أنا مُعلىّ الطائى ، وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ ، فلا يغلُظَنّ علىّ قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغك . أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرةٍ ... وأظلم الناس ، عند الجود ، للمالِ

لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبا ... لما أشرْتَ إلى خَزْنٍ بمثقال

تُغْلى بما فيه رِقّ الحمد تملكُهُ ... وليس شىء أعاضَ الحمدَ بالغالى

---

(١) جـ ١٧ ص ١٢٧ .

(٢) جـ ١١ ص ١٢ .

تَـكُفك باليسر كفَّ العسر من زمنٍ ... إذا استطال على قوم بإقـلال

لم تَخـُـل كفك من جودٍ لمُختَـبِطٍ ... ومرهَفٍ قاتلٍ فى رأس قتـال

وما بَثَثْتَ رَعيلَ الخيـل فى بلد ... إلا عصفن بأرزاق وآجـال

إن كنتُ منك على بالٍ منَنتَ به ... فإن شكرك من قلبى على بال

ما زلتُ مقتضِبَاً لولا مجـاهرةٌ ... من ألسُنٍ خُضْنَ فى صدرى بأقوال

قال : فضحك عبد الله ، وسُرَّ بما كان منه ، وقال : يا أبا السمراء . أقرضنى عشرة آلاف دينار ؛ فما أمسيت أملكها . فأقرضه ، فدفعها إلى » .

وهذا من جيد المدح لحسن السبك ولطف المعانى .

واستدل بعض المؤرخين بهذا المدح على أن المعلى كان متنقلا فى ولائه ، وأنه كان متكسباً بشعره . ولكن ذلك كان شائعاً فى أكثر الشعراء . فكيف يؤخذ المعلى وحده بذنبه ؟ أما ابن طاهر فكان سخيا ، سريع العفو عنه ؛ لما كان يعرفه عن الشعراء من ولاء متنقل ، وإخلاص لمنصب الوالى وعطائه ، ولما فيه من ذوق رقيق وحس مرهف يتأثر بهذا البيان القوى ، والشعر السائر .

وروى ابن عبد ربه خبر رثاء المعلى لجاريته ، فقال(١) :

« كان لمعلى الطائى جارية يقال لها « وصف » وكانت أديبة شاعرة . فأخبرنى محمد بن وضاح قال : أدركت معلى الطائى بمصر وأُعْطِىَ بجاريته « وصف » أربعة آلاف دينار فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملكمنى ما بعتك بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير

(١) العقد الفريد ص ١٨٩

واستقال صاحبه . فأصيب بها بعد ثمانية أيام . فقال يرثيها :

يا موت كيف سلبتني « وَصْفَا » قَدَّمْتَها وتركتني خَلْفَا
هلا ذهبت بنا معاً ، فلقد ظفِرت يداك ، فَسُمْتَني خَسْفا
وأخذت شِق النفس من بدني فقبرته ، وتركت لى النصفا
فعليك بالباقى بلا أجلٍ فالموت بعد وفاتها أعْفَى
يا موتُ ما بقَّيْتَ لى أحداً لما رفعت إلى البلى « وَصْفا »
هلا رحمتَ شباب غانيةٍ ريَّا العظام ِوشَعْرَها الوَحْفا[1]
ورحمت عينَى ظبيةٍ جَمَلتْ بين الرياض تناظر الِخشفا[2]
تُغْضِى إذا انتصفت مرابضه وتظل ترعاه إذا أغْفَى
فإذا مشى اختلفَتْ قوائمه وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً فى المشى مرتعشاً يخطو فيضرب ظِلفُه الظلفا
فكأنها « وصفٌ » إذا جملت نحوى تُحيرُ محاجرا وُطْفا[3]
يا موت أنت كذا لكل أخى إلف يصون ببره الإلْفَا
خليتَنِى فردا وَبِنْتَ بها ما كنتُ قبلك حاملا وَكْفاً[4]
فتركتها بالرغم فى جَدث للريح تنسف تُربَه نسفا
دون المقطم لا يُلَبِّسها فى زينةٍ قُلْبا ولا شَنْفا[5]

(١) الوحف : الكثير الأسود .
(٢) الخشف : بفتح الخاء وكسرها : ولد الظبي أول ما يولد ، أو أول مشيه .
(٣) شعر أجفانها كثير : جمع وطفاء .
(٤) الوكف : الضعف ، والثقل ، والشدة .
(٥) القلب سوار المرأة . الشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن كالقرط .

أسكنتها فى قعر مظلمةٍ ... بيتاً يصافح تربُه السقفا
بيتاً إذا ما زاره أحد ... عصفت به أيدى البلى عصفا
لا نلتقى أبداً معاينَةً ... حتى نقومَ لربنا صَفًّا
لبست ثياب الحتفِ جاريةٌ ... قد كنت ألبَسُ دونها الحتفا
فكأنها والنفس زاهقةٌ ... غصن من الريحان قد جَفَّا
يا قبر أبْقِ على محاسنها ... فلقد حويتَ البِرَّ والظَّرْفَا

والمقدمة التى جاء بها ابن عبد ربه تثير العطف والإشفاق على تلك الجارية الضعيفة الحيلة ، مع سيدها الذى آثر الدنانير عليها . وقد استطاعت أن تهز مشاعره ، وتعطف قلبه ؛ فاستردها مشفقاً عليها ، واستبقاها متأثراً بعتابها الباكى الحزين . لكن الموت عدا عليها بعد أيام . ولا ندرى إن كان ذلك من خشية الفراق ، أم من مرض قاتل .

وقد رثاها المعلى ، فجعل رثاءه حديثاً إلى الموت ، مملوءاً بالحسرة الشديدة على حسنها الفانى ، وشبابها المختضر . وعتاباً لهذا الموت الذى لم يرق للجمال الغض ، بل عصف به ، فأسكنه جدثاً موحشاً ، وأسلمه إلى أيدى البلى تعبث به ما شاءت ، حتى تحيله ترابا . ويختم الرثاء بضراعة لا تجدى ، ونداء لا يفيد . إذ يقول :

يا قبر أبق على محاسنها ... فلقد حويت البر والظرفا

وقد اختارها ابن عبد ربه مثلا فى رثاء الجوارى فأحسن الاختيار ؛ لما فيها من سهولة فى التعبير ، وقدرة على إثارة الأشجان ، وحسن اختيار للمعانى التى دار حولها الرثاء .

وللمعلى الطائى شعر يصف فيه محبة الآباء لأولادهم فيقول :

لَوْلا بُنَيَّاتٌ كزُغْب القَطا ... جُمِّعْنَ من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لى مُضْطَرَبٌ واسعٌ ... فى الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرْضِ

وإنما أولادُنا بَيْنَنَا أكبادُنا تمشى على الأرض
إنْ هَبَّتِ الريحُ على بعضهم أشفقَتِ العَيْنُ من الغَمْضِ[1]

وهو شعرسائر، يتردد صداه فى الأجيال والأقطار، وذلك لاتصاله بكل قلب، وتعلقه بكل نفس، وإحساس الناس جميعاً بمعناه إحساساً عميقاً. وفيه من السهولة والقوة ما ضمن له الخلود والذيوع.

٣ — الجمل الشاعر : (١٧٠ — ٢٥٨ هـ)

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام، الشاعر المصرى المشهور، المعروف بالجمل.

تقدمت لهذا الشاعر أبيات فى مدح القاضى محمد بن أبى الليث[2] وذم أعدائه سنة ٢٢٧ هـ. وقال عنه ياقوت إنه كان « شاعراً مفلقاً، مدح الخلفاء والأمراء ». وإنه « قدم دمشق وافداً على أحمد بن المدبر؛ وكان أحمد مقصد الشعراء؛ فمن مدحه بشعر جيد أجزل صلته، ومن مدحه بشعر ردىء وجه به مع خادم له إلى الجامع، فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم يصرفه، فدخل عليه الجمل وأنشده[3] :

أردْنَا فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تُنْتَجَعُ الوُلاةُ
فقالوا أكرمُ الثَّقَلَيْنِ طرّاً ومَنْ جَدْوَاهُ دَجلةُ والفراتُ
وقالوا يقبل الشُّعَرَاءَ، لكن أجلُّ صِلاتِ مادِحِهِ الصلاةُ

---

(١) نسبها ابن سعيد فى المغرب ص ١٠١ إلى المعلى الطائى، وجاء ابن عبد ربه بالأبيات الثلاثة الأولى ونسبها إليه، مع تغيير كلمة « جمعن » إلى « خططن » ج ١ ص ٣٦٤، ولكن أبا تمام فى الحماسة ج ١ ص ١٠٨ ينسبها إلى حطان بن المعلى مع ثلاثة أبيات قبلها فى الشكوى من الدهر.

(٢) ص ٢٠١ من هذا الكتاب. (٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢١.

فقلت لهم : وما يغنى عيالى صَلاَتى ؟ إنما الشأنُ الزكاةُ
فيأمُرُ لى بكسر الصَّادِ منها فتصبحُ لى الصَّلاةُ هى الصَّلاتُ

وقد تجد فى هذا الشعر تكلفاً وصنعة ثقيلة فى تكرار الصلات والصلاة ، وكسر الصاد لينال ما يبتغيه ، والتعبير عن ذلك بالزكاة . ولكنه فى جملته شعر خفيف الروح لطرافة الموضوع ، وغرابة العقاب .

ويظهر من تاريخ الحسين بن عبد السلام أنه كان متكسبا بشعره مادحا ، مرتحلا أو مقيما . فقد مدح المأمون لما قدم إلى مصر ، ومدح الأمراء مثل عبد الله بن طاهر . فإذا حيل بينه وبين ممدوحه عتب أو هجا ، كعادة كثير من الشعراء .

روى ابن عبد ربه فى العقد[1] « أن حسين بن الجمل بكر إلى باب سليمان بن وهب ، فحجبه الحاجب وأدخل ابن شَعْوَة وحمدويه ، فقال الجمل :

ولعمرى لئن حُجِبْتَنا عن الشيـ ـخ فلا عن وجهٍ هناك وَجِيهِ
لا ، ولا عن طعامه التافه النزْ ـرِ الذى حولَه لِطامُ بنيه
بل حُجِبْنَا عن الخسف والمس ـخِ وذاك التبريق والتَّمْويهِ
فجزى الله حاجباً لك فَظًّا كل خيرٍ عنَّا ، إذا يَجْزِيهِ
فلقد سرنى دخولُ أخى شَعْـ ـوَة دونى ، وبَعْدَه حمدَويهِ

وترى فى هذا الهجاء لسانا حديداً ، وطعناً فى تلك الوجوه القبيحة ، واتهاما بالبخل والشح وقلة الطعام . وترى فيه مغالطة الشعر عندما دعا للحاجب الفظ ، لأنه أحسن إليه فمنعه من لقاء تلك الوجوه .

---

(١) ج ١ ص ٤١ وقد اختصرا اسمه كما ترى

ولعله قد لقى من الرفض والحرمان يوما ما أثار نفسه ، فدعا إلى القناعة وقال :

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعةُ شِبْعاً وريَّا
فكن رَجُلا رِجْلُه فى الثَّرى ... وهامَتُهُ هِمَّته فى الثريا
أبيًّا لنائل ذى ثَرْوةٍ ... تراه بما فى يديه أبيا
فإن إراقَةَ ماءِ الحَيَا ... ةِ دون إراقةِ ماءِ المحيا

وربما كان شعره هذا أثراً من آثار ضيق النفس بذل السؤال ، ورجوعها إلى رشدها وتذكرها للمثل العليا ، والأخلاق الكريمة . وهو شعر غريب ممن كان على مثل صفاته ؛ إذ يقول عنه ابن يونس فى تاريخ مصر[1] إنه كان « شرها فى الطعام ، دنىء النفس ، وسخ الثوب » وتلمح آثار الشره فى قصيدته السابقة لما حجب عن طعام سليمان بن وهب .

وفى شعر الجمل هذا ما فى شعر زمانه من عناية بالبديع ومحسناته ، وفى بعضها تكلف وثقل كما فى شعره لابن المدبر ، وانظر إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة تجدها ممتلئة بالجناس والمقابلة والاستعارة .

(ب) الشعراء الزائرون :

لم تخل مصر من شعراء قدموا إليها مادحين ، يرجون خيراً من ولاتها ، وشيئاً من ثمراتها ، « فإن أُعْطوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون » ولكن هذه الوفادة لم تصل إلى ما كان فى عهد عبد العزيز بن مروان.

١ — من مدحوا يزيد بن حاتم

من الولاة الذين وفد عليهم الشعراء بمصر الوالى يزيد بن حاتم المهلبى (من سنة ١٤٤ — ١٥١) .

وكان ربيعة الرَّقِّىُّ (الشاعر العراقى) قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتمٍ السُّلَمى.

---

(١) نقلا عن معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢٢

obeikandi.com

فلم يعطه شيئا ، ثم عطف على يزيد بن حاتم الأَزْدِيّ فشغل عنه ببعض الأمر ، فخرج وهو يقول[1] :

أَرَانِى ، ولا كُفْرَانَ لِلّهِ ، راجعا ... بِخُفَّىْ حُنَينٍ من نَوَالِ ابنِ حَاتِم

فسأل عنه : فأخبر أنه قد خرج وقال كذا — وأُنْشِدَ البيت — فأرسل فى طلبه ، فأتى به ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت . فقال : شغلنا عنك !

ثم أمر بخفيه فخلعتامن رجليه وملئتامالا . وقال : ارجع بهما بدلامن خفى حنين .

ولما عزل عن مصر ، وولِيها يزيد بن حاتم السلمى قال ربيعة :

بكى أهل مصرٍ بالدموع السَّوَاجِمِ ... غَدَاةَ غدا منها الأَغَرُّ ابنُ حاتم

وفيها يقول :

لَعَشَّتَانَ مابينَ اليزيدَيْنِ فى النَّدَى ... يَزِيدِ سُلَيم والأَغَرِّ بنِ حاتِمِ

فَهَمُّ الفتى الأَزْدِيِّ إتلافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ الفتى القَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ

فلا يَحْسَبِ التمتامُ أنى هجوته ... ولكنَّنِى فَضَّلْتُ أهلَ المكارِمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه . فلما بلغ مصر وجده قد مات ، فقال فيه :

لئن مصرُ فاتَتْنِى بما كنتُ أرتجى ... وأخلفَنِى منها الذى كنتُ آمُلُ

فما كلُّ ما يَخْشَى الفتى بمُصِيبَةٍ ... ولا كل ما يرجو الفتى هُوَ نائِلُ

وما كان بينى لو لقيتُكَ سالما ... وبينَ الغِنَى إلاَّ ليالٍ قَلَائِلُ

وقصده محمد بن عبد الله بن مسلم — ابن المولى — ومدحه بقصيدة جميلة أولها :

وإذا تباع كريمة أو تشترى ... فسواك بائعها وأنت المشترى[2]

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢ .

ويزيد بن حاتم معدود من أجواد العرب الذين سارت بجودهم الركبان ، ويفهم من مقدمة هذه الأبيات الأخيرة أنه أقام بمصر بعد عزله وظل بها حتى مات .

٢ — أبو نواس بمصر :

ويحدثنا التاريخ الأدبى أن والياً بمصر اسمه الخصيب بن عبد الحميد(١) كان مقصد شاعر من كبار شعراء بغداد ، هو الحسن بن هانىء الملقب بأبى نواس . وقد سكت التاريخ السياسى فلم يتحدث عن الخصيب هذا ، لكن تاريخ الأدب خلد اسمه فى قصائد أبى نواس التى قالها مدحا وهجاء فى وفادته عليه .

روى أنه لما قدم أبو نواس على الخصيب بمصر ، صادف فى مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح لهم . فلما فرغوا استنشده الخصيب فقال : ألا تنشدنا يا أبا على . فقال أبو نواس : أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تلقَـف ما يأفِـكون ، فأنشده قصيدته الرائية التى أولها :

أجارةَ بيتَـينا أبُـوكِ غَـيُورُ ومَيْـسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

حتى أتى على آخرها ، فانفض الشعراء من حوله ، واهتز لها الأمير ، وأمر له بجائزة سنية .

ويقال إنه كان قد خرج إلى مصر فى زى الشطار وتقطيعهم ، بطُـرَّةٍ قد صففها ، وكُـمَّين واسعين ، وذيلٍ مجرور ، ونعل مطبق . وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ، فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به ، وكان تورَد عليه كتب الجِلَّةِ ممن بباب السلطان ، ووردت كتب أبى نواس فيها ، فقرأها ولم يستنشده ، فانصرف مهموماً ، وجاءه أهل الأدب ، فاستمعوا

---

(١) الخصيب بن عبد الحميد أمير مصر على الخراج حوالى سنة ١٩٠ وإليه تنسب منية الخصيب .

شعره ، وكتبوه وأنشدوه للخصيب ، فاستحضره فأنشده[1] :

أجارة بيتينا أبوك غيورُ ... وميسور ما يرجى لديك عسير
فإن كنت لا خلما[2] ولا أنت زوجة ... فلا برحت دونى عليكِ ستور
وجاورتِ قوما لا تزاورَ بينهم ... ولا وصلَ إلا أن يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ... ولا كلُّ سلطانٍ علىَّ قدير
وإنى لطرف العين بالعين زاجر ... فقد كِدتُ لا يخفَى علىَّ ضمير
كما نظرت ، والريح ساكنة ، لها ... عقاب بأرساغ اليدين نُدُور[3]
طوت ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ ... أزَيْغبَ لم ينبت عليه شكير[4]
فأوفت على علياء حين بدا لها ... من الشمس قرنٌ والضَّريب يمور[5]
تُقلِّبُ طرْفا فى حِجاجىْ مَغارة ... من الرأس لم يدخل عليه ذَرُور[6]

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتها خف مركبى ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دُونَ مصر للغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى فى جريهن عبير
ذرينى أكَثِّرْ حاسديك برحلةٍ ... إلى بلد فيه الخصيب أمير

قال له الخصيب : إذاً يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار .

ويقول فيها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابُنا ... فأىَّ فتًى بعد الخصيبِ تَزُورُ

---

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٣٤ .
(٢) الخلم : الصديق .
(٣) ندور : نتوء العظم من موضعه .
(٤) شكير : الريش أول ما ينبت .
(٥) الضريب : الثلج أو الجليد .
(٦) الحجاج : العظم ينبت عليه شعر الحاجب . ذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونَهُ ... ولكن يَصيرُ الجودُ حيث يصيرُ
فتى يشترى حسنَ الثناءِ بمالِهِ ... ويعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
ولم ترعينى سُودَداً مثلَ سُودَدٍ ... يحل أبو نَصرٍ بِهِ ويَسيرُ
وأطرقَ حياتُ البلادِ لِحَيَّةٍ ... خصيبيَّةِ التصميمِ حين تسُورُ[1]
سموتَ لأهلِ الجوْرِ فى حالِ أمْنِهِمْ ... فأضحَوا وكلٌّ فى الوَثاقِ أسيرُ
إذا قام غَنَّتْهُ على الساقِ حِلْيَةٌ ... لَهَا خطْوُه عند القيامِ قَصيرُ
فمن يك أمسى جاهلا بمقالتى ... فإن أميرَ المؤمنين خبيرُ
فما زِلْتَ توليه النَّصيحةَ يافعا ... إلى أن بدافى العارضين قتير[2]
إذا غاله أمر فإمَّا كفيتَهُ ... وإما عليه بالكِفَاءِ تشير

ويصف منازله بالطريق حتى يصل إلى الفسطاط ، ثم يقول :

زها بالخصيب السيف والرمح فى الوغى ... وفى السلم يزهو منبر وسرير
جوادٌ إذا الأيدى كففن عن الندى ... ومن دون عوراتِ النساء غيور
له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم ... إذا استؤذنوا يوم السلامِ بدور
وإنى جدير إذ بلغتك بالمنى ... وأنت بما أملت منك جدير
فإن تولنى منك الجميل فأهله ... وإلا فإنى عاذر وشكور

وقلدها كثير من الشعراء ، وسارت بذكرها الأحاديث فى الأدب العربى ، وعدت من عيونه إلى الآن .

ولا تخلو وفادة أبى نواس على الخصيب من أخبار ؛ بعضها بعيد عن التصديق كالمقدمة التى سبقت هذه القصيدة ، وهناك رواية[3] عن لقاء أبى نواس للخصيب فى الشام بعد عزله ، وأن أبا نواس لم يعرف صاحبه ، فعرفه بنفسه ، فنزل عن دابته

(١) تسور : تثب . (٢) قتير : شيب .
(٣) معاهد التنصيص جـ ٢ ص ٢٢٢ .

وقبل يده ورجله ، وسأله عن تغير حاله ، ودفع إليه ما كان معه من ثياب وراحلة ونفقة ، فأقسم الخصيب ألا يأخذ شيئا .

وكان أبو نواس يعتز بشعره ، ويعرف مبلغ سحره . فقد روى أنه كان مع الخصيب يوماً فى مجلس شراب ، وماج الناس بسبب الأسعار ، وتظاهروا ، فقال أبو نواس : دعنى أيها الأمير أسكنهم . فقال : ذلك إليك . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد المنبر وعليه ثياب مُشَهَّرات ، فقال[1] :

منحتكمُ يا أهل مصرَ نصيحتى ... ألا فَخُذُوا من ناصحٍ بنَصيبِ
ولا تَقْبُوا وثب السِّفَاهِ فتَرْكَبُوا ... على حدِّ حامى الظهر غيرَ رُكُوبِ
فإن يك باقٍ إفكُ فرعونَ فيكمُ ... فإن عصا موسى بكفِّ خَصيبِ
« وما كمْ أمير المؤمنين بحيَّةٍ ... أكولٍ لحيات البلاد شَرُوب »

قال : فتفرق الناس ولم يجتمعوا بعده ، وصدق ظن أبى نواس فى شعره .

وحكى عن إسماعيل بن أسباط[2] قال : لما قال أبو نواس :

« منحتكم يا أهل مصر نصيحتى »

رأى الخصيب فى المنام قائلا يقول : يا خصيب ، ما فوق هذا المدح مدح . قال : فما جزاؤه ؟ فأخبره أنه يستحق ألفا . فلما أصبح الخصيب صبح أبا نواس بألف دينار . فقال أبو نواس قصيدة أخرى فى مدحه بدأها بمقدمة تقليدية فيها حديث عن السكر ، وعن الناقة التى حملته إليه[3] ، ثم قال[4] :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ ... فتدفقا فكلاكما بَحْرُ

---

(١) الديوان ص ٧٨ .
(٢ ، ٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٤) الديوان ص ١٦٩ .

لا تصمدا بي عن مَدَى أملٍ شيئاً ، فما لكما به عُذْرُ
ويحق لي إذ صِرْتُ بينكما ألا يحل بساحتي فَقْرُ
النيل يُنْعِشُ ماؤه مصراً ونداك يُنعِشُ أهلَه الغَمرُ

ومدحه بقصيدة أخرى نونية تذكر فيها الكرخ وهو بمصر ، وذكر ما فيها من حانات وقصور كان يفد عليها للخمر ، أو للنائل الغمر ، ثم يخاطب ابنته فيقول :

يَا ابْنَتي أبشري بمِيرةِ مِصْرٍ وتمَنَّيْ وأسرفِي فِي الأمَانِي
أنا في ذمّةِ الخصيبِ مُقيمٌ حيث لا تعتدِي صروفُ الزمانِ
قد عَلِقْنَا من الخصيب حِبالاً آمنَتْنا طوارقَ الحدَثانِ(١)

وغير ذلك من الأبيات .

وهجا الخصيب حين سخط عليه ، هجاء يكذبه مدحه فيه ؛ يقول :

خُبزُ الخصيبِ معلق بالكوكبِ يُحْمَى بكل مُثَقَّفٍ ومُشَطَّبِ(٢)

وقال فيه أيضا :

نَفسُ الخصيبِ جميعُه كِذْبُ وحديثه لجليسه كَرْبُ
تبكي الثياب عليه مُعْوِلةً أن قد يجر ذيولَها كَلْبُ(٣)

أما هجاؤه لهاشم بن حديج فقد تجاوزه إلى أجداده وبعض مواقفهم التاريخية ، ومنها ما فعله جده بمحمد بن أبي بكر إذ يقول له(٤) :

---

(١) الديوان ص ٢٩٣ .
(٢ ، ٣) الديوان ص ٨٢ ، والمثقف : الرمح . والمشطب : السيف .
(٤) الديوان ص ١٣٤ .

يا هاشم بن حُدَيْجٍ ليس فخركمُ … بقتل صِهْرِ رسول الله بالسَّدَدِ
أدْرَجتُمُ فى إهاب العَيْرِ جُثَّتَهُ … فبئس ما قدمَتْ أيديكُمُ لِغَدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقد قَتَلَتْ … حُجْراً بدارةِ مَلْحُوب بَنُو أسدِ

وحُجْر المشار إليه هو والد امرىء القيس ، الذى قصر فى الأخذ بثأره تقصيراً معيباً عند أبى نواس فقال فيه :

أَلْهَى امرأ القَيْسِ تَشبيبٌ بغانيةٍ
عن ثأرِهِ ، وصِفاتُ النُّؤْىِ والوَتِدِ

وهجا أهل مصر جميعاً أو عاتبهم عتاباً قاسياً ، ولم يرض إلا عن أحمد بن حوى العذرى الذى كان والياً على الشرطة سنة ١٨٩ هـ . فقال[١] :

دَمُ المكارم بالفُسْطَاطِ مَسْفُوحُ … والجُودُ قد ضاع فيها وهو مَطْرُوحُ
يا أهلَ مصرَ لقد غبتم بأجمعكم … لما حوى قَصَبَ السبق المَسَامِيحُ
أموالكم جَمَّةٌ والبُخل عارَضَها … والنيلُ ، مَعْ جُودِهِ ، فيه التماسيحُ
لولا ندى ابْنِ حُوَىٍّ أحمدٍ نَطقتْ … منى المفاصِلُ فِيكُمْ والجَوَارِحُ

وتجد فى شعر أبى نواس بمصر كثيراً من خصائصه ، وشيئاً من أثر البلاد والرحلة والممدوح فى شعره .

فأثر البلاد ظاهر فى إشارات أبى نواس إلى تاريخها ، وبخاصة فرعون وموسى والعصا والحية والنيل والتماسيح . وما سمعنا بمثل هذا فى غير شعره المصرى . كما كان للتاريخ الإسلامى أثر فى شعره عندما هجا آل حديج بقتلهم لصهر رسول الله . وقد تردد اسم الخصيب وهاشم بن حديج ومصر فى شعره كثيرا .

---

(١) الديوان ص ١١٤ .

openkandil.com

٣ ــ أبو تمام :

وهو الشاعر الذى اختلف فيه ؛ ونسب إلى مصر . والمشهور أنه ولد فى قرية « جاسم[١] » بالشام (سنة ١٩٠هـ) وأنه عربى طائى ، ولكن قل أن سلم شىء من ذلك ولم يختلف فيه ، حتى دين أبيه . وهو خلاف لا يؤثر كثيراً فى شاعرية أبى تمام ، والذين نسبوه إلى مصر لا يستطيعون أن يجدوا فى شعره من آثر البلاد وتاريخها مثل ما وجدوا لأبى نواس .

قيل إنه جاء إلى مصر صغيراً وتربى بها ، وتعلم الأدب وحفظ الأخبار وروى الأشعار ، وأنشد شعره بجامع عمرو ، ومدح وهجا . ثم خرج من مصر ساخطا ومدح وهجا قوما آخرين فى بغداد وغيرها .

وفى ديوانه من أشعاره بمصر شىء كثير ، بعضها فى مدح عَـيَّاشِ بن لِهَيعه يقول فيها[٢] :

رأيتُ لعَـيَّاشٍ خلائقَ لم تكن ... لتكمُلَ إلا فى اللُّبابِ المهذَّبِ
له كرمٌ لو كان فى الماء لم يَغِضْ ... وفى البَرْقِ ماشامَ امرؤٌ بَرْقَ خُلَّبِ

إلى أن يقول :

وأنت بمصرٍ غايتى وقرابتى ... بها ، وَبَنُو أبيك فيها بنو أبى
ولاغروَ إن وَطَّأْتَ أكنافَ مرتَـبِى ... لهمَلِ إخفاضى ، ورفَّهتَ مشربى
فقومت لى ما اعوجَّ من قصد همتى
وبَيَّضْتَ لى ما اسْوَدَّ من وَجْهِ مَطْلَبِى

كما مدح المعتصم — أو المأمون — بقوله[٣] :

(١) على بعد ثمانية فراسخ من دمشق . (٢) الديوان ص ٢٤ .
(٣) ص ١١٢ .

فانْتَاشَ مصر من اللتَيَّا والتى بتجاوُزٍ وتَعَطُّفٍ وتَغَمُّدِ

وقد أشار إلى تنقله فى البلاد ومنها مصر فقال[١] :

بالشامِ أهلى وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضَى بما صنعت حتى تُشَافِهَ بى أقْصَى خُرَاسَانِ
خلفت بالأُفُق الغربى لى سَكَناً قد كان عيشى به حُلْواً بحُلْوانِ

وسبق له أبيات فى انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى[٢] . وفى رثاء عمير بن الوليد والى مصر سنة ٢١٤[٣] .

وعاتب عياشَ بن لهيعة[٤] لأنه لم يكافئه على مدائحه ، ولم يحسن إليه بما أحسن فيه من أشعار .

وضاق رزقه بمصر ، فدعا لدمشق أن يجودها الحيا لجود أهلها ، وفدى بنفسه أرض الشام ، التى عدته عنها غربة النوى مكرها خمسة أعوام ، فقال[٥] :

أخمسةُ أعوام مَضَتْ لمغيبه ؟
وشهرانِ ، بل يومان ، تُكْلٌ من الثُّكْلِ
توانىوَشيكُ النجحِ عنه ،وَوُكِّلَتْ به عزماتٌ أوقَفَتْهُ على رِجْلِ

لقد طلَعَتْ فى وجه مصر بوجهه — بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ —
وساوسُ آمالٍ ومَذْهَبُ همةٍ مخيمةٍ بين المطية والرَّحْلِ

---

(١) الديوان ص ٣٢٣ .
(٢) الكندى ص ١٨٠ ، ١٨٣ .
(٣) الديوان ص ٣٨٩
(٤) الديوان ص ٤٠٠ ، ٤٠١
(٥) الديوان ص ٤٢١

نأيتُ ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أُقِم … فامْتَعَ ، إذ نُجِّعْتُ بالمال والأهلِ

وفى أبيات أبى تمام هذه من الثورة النفسية والألم المرير ما ليس فى حاجة إلى التعليق . وكان ينتظر من عياش بن لهيعة شيئاً كثيراً فلم يحقق أمله ، فهجاه فى كثير من القصائد حياً وميتاً . ومن هجائه فيه ميتاً قوله[1] :

أيا من أعْرَضَ اللهُ … عن العالم من بُغْضِهْ

ويا من بعضُه يشهـ … ـد بالبغض على بعضِهْ

ويا أثقلَ خلق اللـ … ـه من ماشٍ على أرضِهْ

ومن عاف مليكُ المو … تِ واستقْذَرَ من قَبْضِهْ

ونرى لهذا البيت الأخير صدى فى قصيدة أبى الطيب المتنبى ، التى قالها فى هجاء كافور وقومه وهو هاربٌ من مصر ، إذ يقول :

ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسِهِم … إلا وفى يَدِه ، من نَتْنِهَا ، عود

وهجا أبو تمام شاعراً من شعراء مصر اسمه يوسف السَّرَّاج . واستكثر عليه أن يكون أديباً وهو سراج ، فقال له[2] :

أيوسُفُ جئتَ بالعَجَبِ العجيبَ … تركتَ الناسَ فى أمرٍ مُريبِ

سمعتُ بكل داهيةٍ نآدٍ … ولم أسمَعْ بسَرَّاجٍ أديبِ

أما لَوْ أنَّ جهْلَكَ كان علماً … إذاً لنَفَذْتَ فى علم الغُيُوبِ

فما لَكَ بالغريب يَدٌ ، ولكن … تعاطيك الغريبَ من الغريبِ

فلو نُبِشَ المقابرُ عن زُهَيْرٍ … لصرَّحَ بالعويلِ وبالنحيبِ

متى كانت قوافيه عيالا … على تفسيرِ بقْراطَ الطبيبِ

(١) الديوان ص ٤٩٨

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

opelkandil.com

فكيف ولم يزل للشعر ماءٌ يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ
أرى ظُلْمِيكَ إنصافاً وعَدْلاً وذنبي فيك تكفيرَ الذنوبِ

وقد كان هذا النقد ، الذى وجهه أبو تمام إلى يوسف السراج فى شعره ، سهما صوبه عبد العزيز الجرجانى فى الوساطة إلى أبى تمام نفسه ؛ فإنه أورد الأبيات الثلاثة التى قبل الأخير ، وعلق عليها بأن أبا تمام نفسه لم يتبع ذلك فى شعره ؛ فاحتاج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس[1] .

وهجا عيسى بن يزيد الجلودى لما انهزم فى موقعة « النويرة » أمام أهل الخوف سنة ٢١٤ . وقد تقدم بعض هذا الهجاء ، وهجا المطلب الخزاعى وكان مدحه[2] .

وكذلك كانت حياته فى مصر مدحا وهجاء كما كانت حياة أبى نواس .

وكنت أود أن أنسب أبا تمام لمصر معتمداً على ما قيل من نشأته بها ، لولا أن هذه النشأة لم تترك أثراً كبيراً فى شعر أبى تمام ، فيما عدا الموضوعات والأشخاص الذين هجاهم ومدحهم . والأثر الذى تركته فيه هذه الحياة بمصر أقل مما تركته فى أبى نواس ، الذى جاء فى زيارة قصيرة ثم رحل .

٣ — دعبل بن على الخزاعى :

وهناك شاعر آخر له بمصر مدح وهجاء ، وهو دعبل بن على الخزاعى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ . وكان دعبل هجاء خبيث اللسان ؛ جاء إلى مصر طامعاً فى نوال رجل من أقربائه ، وهو المطلب بن عبد الله الذى ولى مصر مرتين إحداهما سنة ١٩٨ والثانية سنة ١٩٩ هـ .

---

(١) الوساطة ص ٢٣ (٢) الديوان ص ٤٩١

أما وفادة دعبل عليه فقد انتهت روايتها فى الأغانى(١) إلى دعبل نفسه . فقد روى أنه رجع من الحج ، إلى مصر ، فلق بالطريق رجلا يقال له أحمد السراج ، وكان مع دعبل أخوه رزين ، وبدا لهما من حسن أدب السراج ما عطف قلبهما عليه ، فتبرعا له بقصيدة من شعرهما ينشدها ، ويأخذ عليها جائزة من المطلب الخزاعى . فلما وصلوا مصر ودخلوا على المطلب خيب السراج ظنهما — وكان أسبق دخولا عليه — فأنشده من شعره مدحا قال فيه :

إنى استجرتُ بأستارَيْنِ مستلِماً ركنين ، مُطَّلِباً والبيتَ ذا الحُجُبِ
فذاك للآجلِ المأمول ألمسه وأنتَ للعاجل المرجوِّ والطَّلَبِ
هذا ثنائى ، وهذى مصر سانحةً وأنتَ أنتَ ، وقد ناديتُ من كَثَبِ

فصاح مطلب : لبيك لبيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه . وقال : يا غلمان ، البِدَرَ . فأُحْضِرَتْ . ثم قال : الخِلَع . فنشرت . ثم قال : الدواب . فأَمر له من ذلك بما ملأ عينيه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه . وكان حسدُنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ؛ وغيظُنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله علينا أكثر وأعظم . فخرج بما أُمِرَ له به وخرجنا صفرا . وغاظ ذلك دعبلا ؛ فهجا المطلب .

وقيل إن سبب غضب دعبل عليه من أول يوم أنه كان جاء إلى مصر أيام ثورة رجل من العلويين ، وكان المطلب قد وكل بالأبواب من يمنع الغرباء دخولها ، فَمُنِع دعبل ، فأغلظ لمن منعه ، فَقَنَّعه بالسوط وحبسه . فمضى أخوه رزين فأخبر المطلب ، فأمر بإطلاقه ؛ ودعا به فخلع عليه . فقال له : لا أرضى أو تقتل الموكل بالباب . فقال له : هذا لا يمكن لأنه قائد من قواد السلطان فغضب وهجا .

---

(١) ج ١٨ ص ٤٧ ، ٤٨ .

ثم ولاه المطلب أسوان ، ولما بلغه هجاؤه عزله . ومن هذا الهجاء قوله :

تُلْصِقُ مصرُ بك المخزياتِ   وتبصُقُ فى وجهك المَوْصِلُ
وعادَيْتَ قوماً فما ضرَّهم   وشرَّفت قوماً فلم يَنْبُلُوا
شعارُكَ عند الحروب النجا   وصاحبُك الأخوَرُ الأفشلُ
فأنت إذا ما التَقَوْا آخرٌ   وأنت إذا انْهَزَمُوا أولُ

وقال يجرد قبيلته من شهرتها القديمة فى الكرم ، بسبب لؤمهم الحديث الذى أكسبهم مطلب إياه وكأنه يقول : تعارضا فتساقطا . وذلك إذ يقول :

اضرب ندى طلحةِ الطَّلَحات مُتَّئِداً
بلؤم مطلب فينا وكن حكما
تخرجْ خُزَاعةُ من لؤم ومن كرم   فلا تَعُدُّ لها لؤما ولا كَرَماَ

ولما عزله عن أسوان بسبب هذا الهجاء ، أنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، وامنعه من الخطبة ، وأنزله عن المنبر واصعد مكانه .

فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ، ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دعنى أخطب فإذا نزلت قرأته . قال : لا ، قد أمرنى أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه . فقرأه . ونزله عن المنبر معزولا .

أما مدحه فى المطلب فقد روى الأغانى منه بيتين لفظهما قليل ، ومعناها كثير إذ مدحه بالجود ، ولام من يقصدون غيره ، وعجب منهم ، وقدم أسرته عند الفخر بالكثرة ، وقدمه يوم التفاخر بالواحد ، وذلك إذ يقول :

أبَعْدَ مصرٍ وبعد مُطَّلِبِ   ترجو الغنى ؟ إن ذا من العَجَبِ !

obeikandi.com

إن كاثرونا جئنا بأسرته وإن وَاحِدُونا ، جئنا بمطلب

ولا ننسى أبيات دعبل التى شيع بها المطلب ساخرا منهكما[1] .عند ارتحاله من مصر إلى الحجاز .

هذا هو الشعر العربى فى مصر زمن العباسيين ، وهؤلاء هم رجاله . والمصرى منه شعر حفظته بعض كتب التاريخ والقضاء ، وندر وجود شىء منه فى كتب الأدب كما سبق . وأكثره مقطعات ومختارات تساق استشهادا فيحذف منها كثير ، ويستغنى عن أوائلها وأواخرها غالباً ، وقد لا تكون مرتبة كترتيبها فى الأصل. وتحس من قراءة ما اختاره الكندى أن الشاعر ينتقل انتقالا مفاجئا ، وأن المعانى غير مسلسلة . ودليلنا على أن هذا الاختيار لا يتفق مع الأصل دائماً تلك الأبيات التى جاء بها لأبى تمام فى هجاء الجلودى ، فقد روى منها ستة أبيات بدأت من العاشر ووراءه البيت العشرون . وتلك القصيدة الدالية فى رثاء عمير بن الوليد فإنها أربعون بيتاً فى الديوان لم يذكر منها إلا أربعة أبيات غير متتابعة .

وليس من العدل أن نطالب مؤرخاً برواية القصائد كاملة ، فليس ذلك من عمله ، ولكن الاقتصار على كتب التاريخ وحدها ، مع فوائدها التى لا توجد فى غيرها ، لا يصور الأدب فى نواحيه المتعددة .

ولا بد أن يكون التعليق عليه محدوداً . فمطالع قصائده غير معروفة ، والحكم عليها لا يعتمد على أساس من الشواهد ، والانتقال من هذه المطالع إلى الأغراض الأصلية غير معروف . وإن غلب على الظن أنه كان مع التمهيد وحسن الربط ، لا مفاجئاً كما كان فى العصر الجاهلى مثلا . وروعى فيه حسن التخلص من المقدمة إلى الغرض .

وارتباط الأبيات ، وحسن تأليف العبارات ، وحسن المعانى ولطفها ،

---

(١) ص ١٦٩ من هذا الكتاب ، الكندى ص ١٦١ .

ويختلف الحال عن ذلك كثيراً فى الشعر العباسى . فإنه كان دواوين كاملة ، فسنحت الفرص لدراسته دراسة وافية ، وعرفنا منه صلته بالشعر القديم ، ومدى بعده عنه واقترابه منه ، وخصائصه وبواعثه ومميزاته ، والعوامل التى وجهته إلى الحضارة ووصفها ، أو المدح والمبالغة فيه ، أو الفلسفة والعناية بها ألفاظا ومعانى ، أو السياسة واشتراكه فيها ، أو البديع وغلبته عليه ، وغير ذلك .

وكان شعر الوافدين على مصر شعر مدح وهجاء . يمتاز بحسن البيان ، والبعد عن التكلف ، والبراعة فى أداء المعانى المتشابهة بعبارات قوية جميلة . أما هذه المعانى فكان أكثرها مما شاع فى المدح والهجاء . وقليل منها كان من وحى البلاد ، كهجاء أبى نواس لأهل مصر ؛ أو من وحى المهجو نفسه ، كقصيدة أبى تمام فى يوسف السراج .

الفصل العاشر

شعر الطولونيين

كان للأدب العربى رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه فى زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويعجبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لما له من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء فى مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذى ازدهر الشعر فى أيامه ازدهارا عظيما ؛ إذ مكنه طول عهده فى البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصد الأدباء .

وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن لقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبنى طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيرا .

١ — فى عهد دولتهم (٢٥٤ — ٢٩٢)

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبى والسياسى ؛ كما عرف فضل الكتابة فى خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر فى عهده وهو الأديب الذى يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين فى دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحترى ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرته ، بغدادَ حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملا يثير الشعر والخيال ،وكاد ما بلغه هذا الزواج من أبهة وإسراف فى مظاهر الترف يفوق المروى فى ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟

ثم تنازع أمراء بنى طولون بعده حتى ذهبت ريحهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلا من الأبيات فى بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترعى الأدب ، وتجتذب الشعراء وذلك لخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولكنه لم يعدم شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقريزى[1] نقل عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة ، فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد !

وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شعر الميدان قليل وكله فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعرٌ متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدف أن يكون أقدم مابقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضا ببنيان الماريستان للمرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوه ويستثير الناس عليه[2] :

ألا أيُّها الأغفال إيهاً تأملوا ... وهل يوقظ الأذهانَ غيرُ التأملِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٧ (٢) الكندى ص ٢١٦

ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة　　تُسير من سُفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت　　عليكم يد العلج السخيف المجهل

فيا ليت مارستانه نيط بإسته　　وما فيه من علج عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره　　تضج إلى قلب عن الله مغفل

فترى فى شعره توجيهاً للناس إلى الوالى ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك إذ جعله نقمة شاملة ، وجعل هذه النقمة بما كسبت أيديهم ، واتخذ من إصلاحه ومنشآته النافعة سخرية وموضع هجاء ، فذمه وذم القائمين على مستشفاه ، وأسف فى هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا فى صرفه عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه مجد فى محاربته ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ معقلا لماله وحرمه . وبنى كثيراً من المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم اضطرب أمر أصحابه ، وتوفى فى صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود(١) :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا　　ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به　　بالعسف والضرب ، والصناع فى تعب
له مراكب فوق النيل راكدة　　فما سوى القار ، للنظار ، والخشب
ترى عليها لباس الذل مذ بنيت　　بالشط ممنوعة من عزة الطلب

---

(١) الكندى ص ٢١٨

فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الرَّوْع للهرب

وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ، ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كالبيت الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب بجيش ، فباشر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ(١) :

لله دَرِّيَ إذ أغدو على فرسي إلى الهياج ونارُ الحرب تستعِرُ
وفي يدي صارمٌ أفْرِي الرءوسَ به في حدِّه الموتُ لا يُبْقِي ولا يَذَرُ
إن كنتِ سائلةً عني وعن خَبَرِي فها أنا الليثُ والصَّمْصامةُ الذَّكَرُ
من آل طُولُونَ أصلي إن سألتِ فما فوق لمفتخر بالجود مفتخرُ
ورثت مجد أبي عنه ، وورثني مجداً أناف به آباؤه الغررُ
لو كنت شاهدة كَرِّي «بِلِبْدَةَ» إذ بالسيف أضربُ والهاماتُ تبتدِرُ(٢)
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم كأنهم حُمُر والليث مقتسر
إذاً لعاينْتِ مِنِّي ما تسيرُ به عَنِّي الأحاديثُ والأنْباءُ والخبرُ

وهو فخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء في أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :

فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

---

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوى (٢) لبدة : مكان المعركة .

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الموفق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الموفق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة[1] :

طَالَ المدى بابن طولونَ الإمامِ كما ... يزهو به الدين ، عن دينٍ وإسلامِ
قادَ الجيوش من الفُسْطاط يقدمها ... منه على الهول ماضٍ غيرُ محجامِ
فى جحفل ، المنـايا فى مَقَانِبِهِ ... مكامنٌ بين رايات وأعلامِ
يسمُو به من بنى سام غطارفةٌ ... بيضٌ ، وسودٌ أسودٌ من بنى حامِ
لو أن رُوحَ بنى كُنْدَاجَ مُعْلَقَةٌ ... بالمشترى لم يَفُتْه ، أو بِبَهْرَامِ
حاط الخلافة والدنيا خليفتَنا ... بصارمٍ من سيوف الله صَمْصَامِ
يا أيها الناس هُبُّوا ناصرينَ له ... مع الأمير بِدُهْمِ الخيل فى اللاّمِ

وهذا مدح سياسى فى غايته ، فالثناء على الوالى وأفعاله ، والدعوة إلى نصرة الخليفة ومن يدافع عنه يحمل فى طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون فى دفاعه عنه :

من مبلغٌ مُضَرَ الشآمِ وما حوت ... مصرٌ ومن هو مُتْهِمٌ أو مُنْجِدُ
ما بالكم هِضْتُمْ جَنَاح سنانكم ... بتَوا كُلٍ من فعلكم لا يُحْمَدُ

---

(١) الكندى ص ٢٢٧ .

أنَّى، وكيف يطيبُ من أحوالكم[١]، خفض المعيشةِ والإمامُ مقيدُ !
حزان أُفْرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبى وأمى المستضام المفردُ !

وقال منصف[٢] بن خليفة الهذلى يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ، وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً[٣] :

يا غُرَّةَ الدنيا الذى أفعالُهُ غُرَرٌ بها كل الورى تتعلَّقُ
أنت الأميرُ على الشآم وثغرِها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ
وإليك مصرُ وبَرْقَةٌ وحجَازُها كلٌّ إليك فؤادُه متشوِّقُ
هتك الخلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لعباً، والحسُودُ الأخْرَقُ
أسيافُنَا بيضُ المَنُونِ فليتها بنَجِيعِ من خذَل الإمام تُخَلَّقُ[٤]
تُمسى وتُصبح ضارباً من دونه بمُهَنَّدٍ منهُ الحتوفُ تَفَرَّقُ

وهو شعر سياسى كسابقه يرمى الشاعر من ورائه إلى بيان فضل ابن طولون على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه فى البلاد التى يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحترى ، قصيدة طويلة فى مدح أحمد بن طولون ومنها[٥] :

فأصبحتَ فى بغدادَ لا الظل واسع ولا العيش طل فى غضارته رَطْبُ

---

(١) فى الكندى (يطيب . . . الكم) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .
(٢) فى سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية هناك فى معنى هذه القصيدة :
(٣) الكندى ص ٢٢٨ .
(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .
(٥) ديوان البحترى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أأمدح عمال الطساسيج راغبا
إليهم ، ولى بالشام مستمتع رغب (١)

وعند أبى العباس لو كان دانيا
نواحى الفناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلاء نيتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما ينول أو يحبو

ثم يصف الخارجين عليه ويذمهم فيقول :

وكانوا ثمود الحجر حق عليهم وقوع العذاب ، والخصى لهم سقب (٢)

وما شك قوم أوقدوا نار فتنة وسرت لهم ، فى أن نارهم تخبو
كأن لم يروا « سيما الطويل » وجمعه وما فعلت فيه وفى جمعه الحرب (٣)
ولو لم يحاجز لؤلؤ بفراره لكان لصدر الرمح فى لؤلؤ ثقب (٤)

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يستر فضائح فعلهم وفاء ، ولم ينهض بغدرهم شغب
أخاف كأنى حامل وزر بعضهم من الذنب أو أنى لبعضهم إلب
وما كان لى ذنب فأخشى جزاءه وعفوك مرجو وإن كان لى ذنب

---

(١) الطساسيج = النواحى : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذى أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصاهم كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكما على أنطاكية . قتل سنة ٢٦٥ فى معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع فى عطائه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا الهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلوُّ الجهل ما عدَّ هيّناً ... تكبّدُ سُخطى واصطلاءُ حريقى

ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدّت إلى غير عاهر ... مشابهَ كابٍ فى الكلاب عريق

ليلبخَ أو طولون يُعزَى، فقدحوت ... على اثنين : زوجٍ منهما وعشيقِ[1]

وهكذا الشعراء يسرفون فى المدح والهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذَنَة إلى المصيصة ، فأقام بها أياما ، وعرضت له علته التى كان منها حتفه ، فأغذّ فى السير إلى مصر ، والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب فى الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العلة تأتى عليه شيئا فشيئا حتى مات فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتد وجده ، وقال يرثيه[2] :

إلى الله أشكو أسى ... عرانى كوقع الأسَلْ

على رجلٍ أروعٍ ... يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلْ

شهابٌ خبا وَقْدُه ... وعارضُ غيثٍ أفَلْ

شكت دولتى فقدَه ... وقد كان زينَ الدوَلْ

إذا أمَّه القاصدونَ ... حباهُمْ جميعَ الأمَلْ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته فى الدولة ، وهو

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٥٨

أشبه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه فى تثبيت ملكه ، ولكن منعه عز الخلافة من أن يشير إلى شىء من ذلك .

وقال ابن داود يهجوه بعد موته ويفحش[1] :

عَرِّجْ على اليَحْمُومِ فانزل به ... فاسْلَحْ على قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا[2]

ويخاطب هذا القبر فيقول :

يا حفرةَ النار التى أضرمت ... وظل فيها الرِّجْسُ مدفونا

لا تجعلى لبسةَ جُثْمَانه ... إلا الأفاعى والثعابينا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد فى الأرض مثلهم فيقول :

فعزِّ إبليسَ بها أولا ... وعزِّ من بعدُ الشياطينا

وقل لهم : قد كان يكفيكم ... ويهتك المعروف والدينا

ثم مضى غير فقيدٍ ، ولا ... كان حميداً عُمْرَه فينا

وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمرَه ... سوى نَقْمة للخلق شنعاء صَيْلَمِ

لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنةً ... ولم يُسْقَ بالمرجُوس ترْبُ المقطمِ

ولم تبكه الأرضون ، لكن تبسمت ... سروراً ، ولولا موته لم تَبَسَّمِ

يبشره إبليس عند قدومه ... عليه بأحمَى بُقْعَةٍ فى جهنَّمِ

لقد طُهِّر الأرضون من سوء فعله ... ومن وجهه ذاك ، الكريهِ المورَّمِ

فلا سُقِيَتْ أجداثُه صوبَ مُزْنَةٍ ... وأنى وفيها شر أولاد آدمِ !

---

(١) الكندى ص ٢٣١ (٢) اليحموم إسم الجبل الشرقى الذى كان فيه قبره

ولعل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون فى حياته وبعد مماته ، وهى بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات فى صديق له يمدحه ويعاتبه ويطمع فى خيراته[1] :

يا ابن المقفع فى البيا ن ويا إياساً فى الذكاءِ
يا ناظراً فى المشكلا ت المعضلات ، ويا ضيائى
إيها ، جعلت فداك ! فيم طويتنى طى الرداءِ؟
ورغبت عما كنت تر غب فيه من لطف الإخاء
من بعد أنى كنت عندك وابن أمك بالسواء
فوحق كفك ، إنها كفٌّ كأخلافِ السماء
لأخلينك والهوى ولأصبرن عن اللقاء
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء
ولأصبرن على رقيك فى ذرى درج العلاء
فهناك أجنى ما غرست إليك من ثمر الرجاء

وقال فى مغنية جميلة[2] :

جاءت بوجه كأنه قمرٌ على قوام كأنه غُصُن

---

(١) اسمه « حذار » أحيانا . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عده مسئولا عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة فى الغزل أرهقها بالبديع فثقلت به (العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٢٦) .

تَرنو بعين إذا تعاينها حسبت أن فى جفونها وَسَنُ
حتى إذا ما استوت بمجلسها وصار فيه من حسنها وَثَنُ
غنت فلم يبق فىَّ جارحة إلا تمنيتُ أنها أذُنُ

وفى هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه المغنية ، ومدح لجمال صوتها ، ودليل على فتنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النغم الجميل أكبر قسط ينعم به الجسد والروح .

ومن شعره فى ثقلاء زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقى وهم خارجون(١) :

زارنى زَوْرٌ ثكلتهم وأصيبوا حيثما سلكوا
أكلوا حتى إذا شبعوا حملوا الفضل الذى تركوا

وفى سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خمارويه إلى دمشق وهزم إسحاقَ بن كُنداج ، وتبعه حتى سر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المريمى(٢) يمدحه ، ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أتانا أبو الجيش الأميرُ بيُمْنه فشُرِّدَ عنا الجور وافتَقَر العُسْرُ
فإن تك أرض الرقتين به اكتست ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصرُ
فسائل به اسحاقَ إذ سار نحوه بجيشٍ كعرض النيل يقدُمهُ النصرُ
تباعدت الأقطار منه كثافةً ففى مشرق قطر وفى مشرق قطرُ
فأبْلَسَ إذ قيل الأمير ببَالِسٍ
وأضحى ضعيف العَقْدِ إذ عُقِدَ الجِسْرُ(٣)

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) المريمى من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خمارويه (المغرب ص ١٠٢) .

(٣) أبلس : يئس وتحير . بالس : بلد بشط الفرات .

ولما رأى الجيشَ ابنُ كُنداجَ مقبلا | أرته المنايا الُحمرَ أعلامه الحمْرُ
فولى شريداً ذا ارتياع كأنه | بكل بلاد طائرٌ ماله وكرُ
لئن مرَّ إسحاقَ النجاة بنفسه | لقد ساءه في جمعه القتلُ والأسْرُ
فلا يغْبَطنْ بالعيش من بعد هذه | فقد كَسَرتْهُ كسرةً مالها جَبْرُ

وافتقار المصر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته بلا تكلف ولا ثقل .

وبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه فلقيه خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن يحيي المريمي[١] :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ | فليس تقاس إليها فتوحُ
تسير لها في جميع البلادِ | ركائب تغدو بها وتروحُ
إذا حاد عن أمره حائد | أتاح له الحتفَ منه مُتيح
نصحنا لشر بنى دِيُودَدْ | بتحذيره لو أطيع النصيحُ
ولم يكن الغدر مستقبحا | وفي الغدر شين وعار قبيحُ
تعاطى نطاحَ كباش الحروب | فغودر وهو صريع بَطيحُ
لئن كان ولى سليما صحيحا | فما القلب منه سليم صحيحُ
أباح حماه فتًى لم يزل | يحوط حمًى وحمى يستبيح
إذا هو لم يسترح من عَدُوٍّ | فليسَ إلى لذةٍ يستريح
وإن همَّ بالسير لم يثنه | سنيحٌ يَمنُّ له أو بريح

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفى البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحترى :

وقد رأيت جيوش النصر مُنْزَلَةً ... على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنيـــة إذ ثنى بكرّته ... فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعتـــه ... كواكب السعد والطيرَ الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا ... بالصين من بعدها ، ماستبعد الصينا

ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه فى ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقه ... على أن يحمل إليه فى كل عام مبلغاً .

وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة ٢٨٢ هـ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة .

ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه فى ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش إلى منبوبه (إمبابه) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون بجيش دميانه فى تنيس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث . فانتهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بنى طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بنى طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، فخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام »[١] .

٢ — الشعر فى أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :

أحدهما شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم وما كسبوا من نصر مبين .

والثانى شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويثير الأشجان لنكبتهم .

وهو فى الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكر فى أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبيشى يتشفى ويمدح القائد الفاتح[٢] :

الحمد لله إقراراً بما وهبا ... قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا[٣]

الله أصدقَ هذا الفتح لا كذبٌ ... فسوءُ عاقبة المثوى لمن كذبا

فتح به فتح الدنيا محمدها ... وفتّح الظلم والإظلام والكربا

لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة ... وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١ ، ٢) والكندى ص ٢٤٨ .

(٣) انشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عـــذراء غادره ... فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن ســـليمانٍ أعزهم ... نفسا ، وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى، لو لم يُرَوْا بشرا ... أضحى عرينهم الخطىَّ لا القضبا

إيها عـــلوت على الأيام مرتبة ... أبا على ترى من دونهـا الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته ... وشيَّـب الرعب شيباناً وقد رغبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... كأنها من زمان غابر ذهبا
وكم ترى تركوا من جنة أُنُف ... ومن نعيم جنى من غَدْرهم غضبا

وكأن هذه القصيدة من وحى أبى تمام فى فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك الوحى فى القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بمحسنات البديع ، فمن الصفات التى كانت تغلب على الشعر فى هذا العصر ، ثم أرهقته فى العصور التالية .

وقال الحبيشى لأبى على الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها ... وقُلِّدْتَ ما قلَّدْتَه بتحكم
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى ... تجمع يوم الجمع من كل مُعْلَم
وكنت وشـــيبانٌ غداة لقيته ... كموسى وفرعون غداةَ المعظم
كفيتَ الإمام المكتفى ما ينوبه ... ولم يك يرجوه بكل مُرَجَّم
وما زلت ترمى آل طولون قبلها ... وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبى يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفـــرق الأظعان ... مسرورة بتفـــرق السكان
لم تبد من حُزْن على أربابهـا ... إذ فى الترحل راحـــة الجيران

رحلوا فلا نزلوا بروض مزهر وعداهم سبل الغمام الدانى
حرموا صيب المزن أنى يمموا وتقسمتهم سطوة الرحمن
ما كان أثقلهم على كتف العلا وأكف أيديهم عن الإحسان
ما كان أرذل دولة سعدوا بها وأحقها بتهدم الأركان
ما عاشروا نعم الإله بشكرها فأثابهم بعقوبة الكفران
ماذا أريحت مصر منه وما إلى أرض العراق، مضى من البهتان!

ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول فى الموضوع، أو براعة الاستهلال وهى التى تلحظ فى الإشارة إلى الموضوع من أول بيت.

ثم يصرح بالعبرة، ولا يخفى الشماتة بهم والرضا عما أصابهم فيقول:

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم فارتع وعج بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت واسرح بزهرة ذلك البستان
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة تنبيك كيف تصرف المصران
يا قتل هرون اجتثثت أصولهم وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا فى جحفل لجب، ولا غسان
وعدية البطل الكمى وخزرج لم ينصرا بأخيهما عدنان
ذقت إلى آل النبوة والهدى وتمزقت عن شيعة الشيطان

عظمة ملكهم وعمارتهم:

وكان عز بنى طولون عزيزا، ومجدهم عظيما، ورخاؤهم عميما، ونعيمهم موفورا وملكهم كبيرا، وكانت قصورهم مشيدة، وصروحهم ممردة، وجناتهم ناضرة، ورياضهم عاطرة.

واقرأ بعض ما كتبه صاحب النجوم فى وصف ديارهم وعزهم قال[1] :

ولما ملك خمارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة . وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبَّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكل ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئا كثيرا .

وعمل فى هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صُوَراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانها الأخراص الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

وجعل بين يدى هذا القصر فسقية ملأها زئبقا . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .

طبيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبيس ، فأنف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً فى خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاعى : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً فى داره المذكورة دارا للسباع ، وعمل فيها بيوتا ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له « زُرَيْق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السباع ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سماط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زريق » معها وربض بين يدى خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريره ربض بين يدى السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائما ، وإن نام خمارويه قعد قريبا منه وتفطن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان فى عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائما ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه فى خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلاعجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلأ شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير .

ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبى هاشم[1] :

قف وقفةً بفناء باب السَّاجِ ... والقصر ذى الشرفات والأبْرَاجِ
وربوعِ قومٍ ازعجُوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيمَا إزعاجِ
كانوا مصابيحاً إذا ظَلِم الدجى ... يسرى بها السارون فى الإدْلاَجِ
وكأنْ وُجوهُهُمُ إذا أبصرتها ... من فضةٍ مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يُرَامُ حِمَاهُمُ ... فى كل مَلْحَمةٍ وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقَى لهم ... عَلَماً بكل ثَنِيَّةٍ وفِجَاجِ
وعليهمُ ما عشتُ لا أدَعُ البكا ... مَعْ كل ذى نظرٍ وطرف ساجِ

وقال سعيد القاص[2] يبكى أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاد والدين والدنيا التى أصيبت جميعا بفقده ، وجعل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التى شيدها ، وعن دولته التى أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمعه ما بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ ... ولم يجر حتى أسلمَتْهُ يَدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .
(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط المقريزى ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذى خامر الحشا ... بَيِنٌ كما أنَّ الأسيرُ من الأسرِ (١)
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسًى ... يبيت على جَمْرٍ ويُضحى على جمرِ
تَتَابُع أحداثٍ تحيَّفنَ صبرَه ... وغدرٌ من الأيام ، والدهرُ ذو غدْرِ
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهرِ
طوَى زينةَ الدنيا ومصباحَ أهلها ... بفَقْدِ بنى طولون ، والأنجمِ الزُّهْرِ
فبادوا وأضحَوْا بعد عزٍ ومَنْعَةٍ ... أحاديثَ لا تخفى على كل ذى حِجْرِ

ثُمَّ يبدأ الحديث الخاص ، ويتجه إلى مدح ابن طولون خَلْقاً وخُلُقا بما يليق بأمير عظيم الأفعال ، عالى الهمة فيقول :

وكان أبو العباس أحمدُ ماجدا ... جميلَ المُحَيَّا لا يبيتُ على وِتْرِ
كأن ليالى الدهر كانت ، لحسنها ، ... وإشراقها فى عصره ، ليلةَ القدر
يدل على فضل ابن طولونَ همةٌ ... مُحَلِّقَةٌ بين السماكين والغَفْرِ (٢)

ويستشهد بالآثار ، وهى شاهد عدل ، ناطق فى صمته بلسان مبين ، ومنها ذلك المسجد الذى بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون :

فإن كنتَ تبغى شاهداً ذا عدالة ... يخبر عنه بالجلىِّ من الأمرِ
فبالجبل الغربى خِطَّةِ يَشْكُرٍ ... له مسجدٌ يغنى عن المنطق الهذْرِ
يدل ذوى الألباب أن بناءَه ... وبانِيَه لا بالضَّنِينِ ولا الغَمْرِ (٣)
بناه بآجُرٍّ وآس وعَرْعَرٍ ... وبالمرْمرَ المسنونِ والجِصِّ والصخرِ (٤)
بعيدُ مدى الأقطار ، سامٍ بناؤه ... وثيقُ المبانى من عقود ومن جُذْرِ

---

(١) الوقيد والوقود : الحطب وشبهه . (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار .
(٣) الضنين = الشحيح . الغمر = الخامل الذى لم يجرب الأمور .
(٤) آس = نوع من الشجر . العرعر = شجر السرو . المسنون = المصقول .

فسيحُ الرحاب يَحْسِرُ الطرفُ دونَه رقيقُ النسيم طيب العَرْفِ والنَّشرِ
وتَنُّورُ فرعونَ الذى فوق قُلَّة على شاهِقٍ عالٍ ، على جبل وعر
بنى مسجداً فيه ، يفوق بناؤه ويهدى به فى الليل ، إن ضل ، من يسرى
تخال سَنَا قنديله وضياءَه سُهيلا إذا ما لاح فى الليل للسَّفْرِ

وعينُ معينُ الشرب ، عينٌ زكية وغير أُجاج للرُّواة وللطُّهْر
كأن وفود النيل فى جنباتها تروحُ وتغدو بين مَدٍّ إلى جزر
فأرفأها مستنبطاً لمعينها من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
يمر على أرض المعافر كلها وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ولا النيل يرويها ولا جَدْولٌ يجرى

ولا تنس مارستانه واتساعه وَتَوْسِعَةَ الأرزاق للحَوْل والشهر
وما فيه من قُوَّامِهِ وكُفَاتِهِ ورِفقَهُمُ بالمعتَفِين ذوى الفقر
فللميت المقبورِ حسنُ جهازِه وللحىِّ رفقٌ فى علاج وفى جَبْر

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأمُّلاً إلى الحِصْن أو فاعْبُر إليه على الجِسْر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعه من الناس فى بدوِ البلاد ولا حَضْر
مآثرُ لا تبلى وإن بادَ رَبُّها ومجدٌ يُؤدِّى وارثيه إلى الفخر
لقد ضُمِّن القبر المقدَّر ذرعه أجل ، إذا ما قيس ، من قبتى حِجْر

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهى عقدهم فتناثرت جواهره .
قال :

وقام أبو الجيش ابنُه بعد موته كما قام ليثُ الغاب فى الأَسَل السُّمْر

أتته المنايا وهو فى أمن داره | فأصبح مسلوباً من النهى والأمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة ! | فيالك من باب حديدٍ ومن صُفْر !

وورّث هرونَ ابنَه تاج ماجد | كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان « جيشٌ » قبله فى محله | ولكن جيشاً كان مستنقَص العُمُر
فقام بأمر الملك هرون مدة | على نكدٍ من ضيق باع ومن حَصْر
وما زال حتى زال والدهر كاشح | عقاربه من كل ناحية تسرى
يُذَكِّرُهمْ لما مَضَوْا فتتابعوا | كما ارفض سِلكٌ من جمانٍ ومن شذر

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله | افقدهُم فليبكِ حزْناً على مصرِ
ليبكِ بنى طولونَ إذ بانَ عصرهم | فبورك من دهرٍ وبورك من عصْر

وورد كتاب المكتفى بولاية الحسين بن أحمد الماذرائى على الخراج وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم .

ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد ابن على الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفى إليهم رجلا يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبى هاشم (١) :

أميرَنا يابن البهاليل الغرر | شفيت من عدونا أبى الأغرّ
صدورَنا . وقيتَ من كل حذَرْ | إذ جاء فى الشوك إلينا والشجر

(١) الكندى ص ٢٥٩ .

فى جَحفَلٍ كموج بحرٍ قد زَخَرْ ... يتبعه أهل البوادى والحَضَرْ
صبرت إذ لاقيته وما صبرْ ... فَرَّ فى أسرع من لمح البَصَرْ
يقطر منه بوله قطر المطرْ ... أحدث فوق سرجه وما شَعَرْ
شفيتنا من تُركهم مع الخزَرْ ... ثم عفا أميرُنا لما قَدَرْ

وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزائه ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبيشى (١) فى أبى الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصر وما نالها ... وشرَّدْتَ بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها ... وأقبلَتْ تطلبُ إقبالها
وكادت تؤوِّهُ شوقاً إليك ... وتظهرُ بالشوق بلبالها
وما شوقُها كان من طبعها ... ولكن ربَّك أوحى لها
لقد فرَّج الله كربَ النفوسِ ... وبلَّغها فيكَ آمالها
ولما رأيناك فى مصرنا ... منحنا الإمارة إجلالها
وما زلتَ تطلبها هِمَّةً ... وتركب بالسيف أهوالها
وتعلمُ نفسُك أن الأمورَ ... إمّا عليها وإمّا لها
تمنَّوا لِقاكَ فلما رأوكَ ... رأوا للمنيةِ إظلالَها
وَمرّوا يطيمون فى كل شىء ... رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العُفاةِ ... وبحر الثغور التى عالها
به كانت الروم فى أمنها ... تفزّعُ للذَّنبِ أطفالها

(١) الكندى ص ٢٦١ .

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث فى الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذى نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فاتك المعتضدى إليه ، ومسير دميانة فى المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحمامى بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار فى ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له (تريك) .

قال سعيد القماص لبدر الحمامى[١] :

حالت معارفهم إلى إنكارِ ... وغدا الخميس لهم بيومِ بوارِ
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا ... وتلاعنوا فيها كأهل النار[٢]
وأتوكَ بين مُعذِّرٍ فى عذْرِهِ ... خجلٍ ، وبين مصرِّح الإقرارِ
وتزعزعت تلك الرماح فصورت ... ركن القطم فى حفيرٍ هارِ
طلعت نجومٌ ، فى الرِّماح بروجها ... فسقطن إذ طلعت نجوم قُدارِ
لما انجلى ذاك الغبار رأيتهم ... صرعى وقد لبسوا بريم غبارِ
فاسعد بنصر الله والفتح الذى ... عظمت به النعمى على الأبرارِ

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشرى والحسين بن أحمد الماذرائى ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها فى ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام متنزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً .

ودخل فاتك الفسطاط فى عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

---

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « ص » « إن ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس فى الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليج فى ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليج وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .

ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء فى هدمه فى شهر رمضان سنة ٢٩٣ وبيعت أنقاضه ودثر كأنه لم يكن .

وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر فى الشعر العربى لأول مرة قصائد متعددة فى آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد فى معانيه ، محزن فى نغماته ، متنوع فى أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه :[1]

من لم يَرَ الهدم للميدان لم يَرَهُ ... تبارك الله ما أعلاه وأقدَرَهُ[2]

لو أن عين الذى أنشاه تبصره ... والحادثات تماديه ، لَأكبَرَهُ

كانت عيون الورى تعشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره

أين الملوك التى كانت تحل به ... وأين من كان بالإتقان دَبَّرَهُ

وأين من كان يحميه ويحرسه ... من كل ليث يهابُ الليثُ منظره

صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فَدَعْثَرَهُ

وأخلق الدهر منه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصران أسطره

دُكَّت مناظره واجتث جوسقه ... كأنما الخسفُ فاجاه فدمَّره

أو هبَّ إعصارُ نارٍ فى جوانبه ... فعاد معروفه للعين منكره

كم كان يؤوى إليه فى مقاصره ... أحوى أغن غضيض الطرف أحوره

كم كان فيه لهم من مشرب غدق ... فعب طرف الردى فيه فكدَّره

(١) الكندى ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليستقيم الوزن

obeikandl.com

أين ابن طولون بانيه وساكنه … أماته المَلكُ الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر … طوبىَ لمن خصّه رُشد فذكره !

وقال أحمد بن إسحاق الحكر(١) :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهـ … ـر تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البثَّ والهموم وأنوا … عاً توالت به من الأشجان
يعلم العالِم المبصر أن الدهـ … ـرَ فيما تراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عيـ … ـش رخى ونضرة وجنان
أين ذاك المسك الذى ذيفَ بالعنـ … ـبر بحتاً وعُلَّ بالزعفران
أين ذاك الخز المضاعف والـ … ـوشى وما استجلبوا من الكتان
أين تلك القيان تشدو على الـ … ـفُرش بما استحسنوا من الألحان
دوّر الدهر آل طولون فى هـ … ـوّة قفر مَسكونُها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليـ … ـه ذئاباً تعوى بتلك المغانى

وقال سعيد القاص(٢) :

وكأن الميدان ثَكلى أصيبتْ … بحبيبٍ صباح ليلة عرس
تتغشى الرياح منه محلا … كان للصون فى ستور الدمقس
ولِفرشِ الإضريج والبُسُطِ الديـ … ـباج فى نعمة وفى لين مَسّ
ووجوه من الوجوه حسان … وخدود مثل اللآلئ مُلس
كل كحلاء كالغزال ونجلا … ء رداح من بين حور ولُعْس

---

(١) روى هذا الشعر فى الخطط جـ ١ ص ٣٢٥ منسوبا إلى أحمد بن إسحاق الجفر .
وهو شاعر نحوى مصرى ترجم له ياقوت باختصار فى معجم الأدباء جـ٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١
(٢) الكندى ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأر ض فأضحى الجديد أهدام لُبس

وكأنه يقتفى آثار البحترى فى إيوان كسرى بحراً وقافية وعبارات . ولا شك أن سينية البحترى هى التى أوحت إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم[1] :

يا منزلا لبنى طولون قد دثرا سقاك سوب الغوادى القطر والمطرا

يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .

حرب مع الغرب :

وكانت المغرب ثائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك إلى والى مصر ، أبى منصور تكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه « حباسة » قاد المغاربة إلى اسكندرية فدخلها فى سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سيما إلى مصر مددا لتكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تدبيرها ، وقدم معهما أحمد بن كيغلغ .

وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو[2] :

ألا شقّ جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاحٍ فيك للعذْل مطمعا

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ صـ ٢٣٥

(٢) الكندى ص ٢٧١